من أقاصيص الأولين

اختيار وتقديم
سامية زكي

هذه نمـــاذج من اقاصيص الأولين تكشف عن قيم عربية اسلامية لانزال فى حاجة اليها .

ان الشخصية العربية واضحة تماما فى هذه الاقاصيص وان العدالة المطلقة والتضامن الاجتماعى ، والحرص الشديد على قول الحق مهما يكن شأن القول فى حقه ، والتمسك بالقيم الروحية الخالدة فى شأن العلاقات بين الناس ـ ان ذلك كله واضح تماما فى هذه الاقاصيص .

وانى لارجو ان يجد فيها القـــارىء شيئا آخر غير ما تقدم هو الاســـلوب العربى ، المشرق ، الجميل .

انها نماذج فى الاساليب التى كان ينهج نهجها الاقدمون من أبنـــاء الأمة العربية .

انه النثر المرســل ، الأقوى الأسر ، الجزل اللفظ ، الذى يكتب فيه الانسان وكأنه يتحدث ، أو يتحدث فيه الانسان وكأنه يملى .

الأقصوصة الاولى

رفع الى الرشيد أن بدمشق رجلا من بنى أمية عظيم المال والجاه ، كثير الخيل والجند ، يخشى على المملكة منه .

وكان الرشيد يومئذ بالكوفة .

قال منارة خادم الرشيد : فاستدعانى الرشيد وقال : اركب الساعة الى دمشق وخذ معك مائة غلام ، وائتنى بفـــلان الأموى وهذا كتابى الى العامل لا توصله له الا اذا امتنـــع عليك ، فاذا أجاب فقيده ، وعادله ، بعد أن تحصى جميـع ما تراه وما يتكلم به ، واذكر لى حاله ومآله . وقد اجلتك لذهابك ســـتا ولمجيئك ســـتا ، ولاقامتـك يوما ـ أفهمت ؟

قلت : نعم .

قال : فسر على بركة الله .

فخرجت أطوى المنازل ليلا ونهارا ، لا أنزل الا للصلاة أو لقضـــاء حاجة حتى وصلت ليلة السابع باب دمشق .

ولما فتح الباب دخلت قاصـــدا دار الاموى ، فاذا هى دار عظيمـــة هائلة ، ونعمة طائلة ، وخدم وحشم ، وهيبـة ظاهرة ، وكرامة وافرة ، ومصـــاطب

متسعة ، وغلمان فيها جلوس ·

هجمت على الدار بغير اذن ، فبهتوا وسألوا عنى فقيل لهم : ان هذا رسول أمير المؤمنين ·

ولما صرت فى وسـط الدار ، رأيت أقواما محتشمين ، فظننت أن المطلوب فيهم وسألت عنه ·

فقيل لى : هو فى الحمام ·

اكرمونى ، واجلسونى ، وأمروا بمن معى ومن صحبنى الى مكان آخر ·

أخذت أنقد الدار وأتأمل الاحـوال حتى أقبل الرجل من الحمام ومعه جماعة كثيرة من كهول ، وشـبان ، وحفدة ، وغلمان · فسلم على ، وسألنى عن أمير المؤمنين ·

أخبرته أنه بعافية ، فحمد الله تعالى ·

ثم أحضرت له أطباق الفـاكهة ، فقال : تقدم يامنارة كل معنا ·

عجبت كثـيرا اذ لم يكننى وقلت : ما آكل ·

فلم يعاودنى ـ ورأيت مالم أره الافى دار الخلافة ·

ثم قدم الطعام فوالله ما رأيت أحسن ترتيبا ، ولا أعطر رائحة ، ولا أكثر آنية منه ، فقال : تقدم يامنارة فكل ·

قلت : ليست لى به حاجة ·

فلم يعاودنى ·

نظرت الى أصحابى فلم أجد أحـدا منهم عندى ، وحرت لكثرة حفدته وقلة من عندى ·

ولما غسل يديه ، أحضروا له البخور فتبخر ، ثم قام فصـلى الظهر ، فاتم الركوع والسجود ، وأكثر من الركوع بعدها · فلما فرغ استقبلنى ·

وقال : ما أقدمك يا منارة ؟ ·

فناولته كتاب أمير المؤمنين ·

فقبله ، ووضعه على رأسه ، ثم فضه وقراه ·

ولما فرغ من قراءته استدعى جميع بنيه ، وخواص أصـحابه وغلمانه ، وسائر عياله ، فضاقت الدار بهم على سعتها ·

طار عقلى ، وما شككت فى أنه يريد القبض على ·

قال : الطلاق يلزمه ، والحج ،والعتق والصدقة ، وسائر ايمان البيعـة ـ لا يجتمع منكم اثنان فى مكان واحدحتى ينكشف أمره · ثم أوصاهم على الحريم، ثم استقبلنى ، وقدم رجليه ، وقال :

هات يامنارة قيودك ·

دعوت الحداد فقيـده ، وحمل حتى وضع فى المحمل ، وركبت معه فى المحمل وسرنا ·

فلما صرنا فى ظاهر دمشق ابتـدأ يحدثنى بانبساط ، ويقول :

هذه الضيعة لى تغل فى كل سـنة بكذا وكذا · وهذا البستان لى وفيه من غرائب الاشجار وطيب الثمار كذا وكذا وهذه المزارع يحصل لى منها كل سنة كذا وكذا ...

فقلت : يا هذا ، ألست تعلم أن أمير المؤمنين اهمه امرك حتى أنفذنى خلفك وهو بالكوفة ينتظرك ، وأنت ذاهب اليه ما تدرى ماتقدم عليه ؟ ـ وقد أخرجتك من منزلك ، ومن بين أهلك ونعمتك ،

وحيدا ، فريدا ، وأنت تحدثنى حديثا غير مفيد ولا نافع لك ، ولا سألتك عنه، وكان شغلك بنفسك أولى بك ٠

فقال : انا لله وانا اليه راجعون ٠ لقد أخطأت فراستى فيك يا منارة ، وماظننت أنك عند الخليفة بهذه المكانة الا لوفور عقلك ، فاذا أنت جاهل لا تصـــــلح لمخاطبة الخلفاء ٠

أما خروجى على ما ذكرت فانى على ثقة من ربى الذى بيده ناصيتى وناصـــية أمير المؤمنين الذى لايضر ولا ينفع الا بمشيئة الله تعالى ، فان كان قد قضى على بأمر فلا حيلة لى بدفعه ، ولا قدرة لى على منعه ، وان لم يكن قد قدر الله على بشىء فلو اجتمع أمير المؤمنين وسائر من على وجه الارض على أن يضرونى لم يستطيعوا ذلك الا باذن الله تعالى ومالى ذنب فأخاف وانما هذا واش وشى عند أمير المؤمنين ببهتان ، وأمير المؤمنين كامل العقل ،

فاذا اطلع على براءتى فهو لا يستحل مضرتى .

يامنارة . على عهد الله لا كلمتك بعدها الا جوابا .

ثم أعرض عنى وأقبل على التلاوة .

وما زلنا كذلك حتى وافينا الكوفة بكرة اليوم الثالث عشر ـ واذا النجب قد استقبلتنا من عند أمير المؤمنين تكشف أخبارنا .

ولما دخلت على الرشيد قبلت الارض بين يديه . فقال :

هات يا منارة ، أخبرنى من يوم خروجك عنى الى يوم قدومك على .

ابتدأت أحدثه بأمورى كلها مفصلة، والغضب يظهر فى وجهه ، فلما انتهيت الى جمعه لأولاده وغلمانه وخواصه ، وضيق الدار بهم ، وتفقدى لاصحابى فلم أجد منهم احدا اسود وجهه ، فلما ذكرت يمينه عليهم تلك الايمان المغلظة تهلل وجهه ، فلما قلت : انه قدم رجليه أسفر وجهه واستبشر ، فلما أخبرته بحديثى معه فى ضياعه وبساتينه ، وما قلت له ، وما قال لى .

قال : هذا رجل محسود على نعمته، مكذوب عليه ، وقد أزعجناه وأرعبناه ، وشوشنا عليه وعلى أولاده وأهله . اخرج اليه وانزع قيوده ، وفكه وادخله على مكرما . ففعلت .

ولما دخل قبل الارض . فرحب به أمير المؤمنين ، وأجلسه ، واعتذر اليه . فتكلم بكلام فصيح .

فقال له أمير المؤمنين: سل حوائجك.

فقال : سرعة رجوعى الى بلدى ، وجمع شملى بأهلى وولدى .

قال : هذا كائن ، فسل غيره .

قال : عدل أمير المؤمنين فى عماله ما أحوجنى الى سؤال .

فخلع عليه أمير المؤمنين ، ثم قال :

ـ يا منارة ، اركب الساعة معه حتى ترده الى المكان الذى أخذته منه .

قم فى حفظ الله ورعايته ، ولا تقطع اخبارك عنا ، وحوائجك الينا .

***

الأقصوصة الثانية

لما قتل عبد الملك بن مروان عمرو بن سعيد بعد ما صالحه وكتب اليه أمانا وأشهد شهودا ـ قال عبد الملك لرجل كان يستشيره ويصدر عن رأيه اذا ضاق به الأمر :

ـ ما رأيك فى الذى كان منى ؟

قال : أمر قد فات دركه .

قال : لتقولن ..

قال : حزم لو قتلته وحييت .

قال : أولست بحى ؟

قال : ليس بحى من أوقف نفسه موقفا لا يوثق له بعهد ولا بعقد .

قال عبد الملك : كلام لو سبق سماعه فعلى لأمسكت .

***

الأقصوصة الثالثة

كان معاوية يداول بين سعيد بن العاص وبين مروان بن الحكم فى ولاية المدينة ، فكان مروان يقارضه .

ودخل سعيد ذات يوم على معاوية فقال له : كيف تركت أبا عبد الملك ؟ يعنى مروان .

قال : تركته منفذا لأمرك ، مصلحا لعملك .

قال معاوية : انه كصاحب الخبزة كفى انضاجها فأكلها .

قال سعيد : كلا يا أمير المؤمنين ، انه من قوم لا يأكلون الا ما حصدوا ، ولا يحصدون الا ما زرعوا .

قال معاوية : فما الذى باعد بينك وبينه ؟

قال سعيد : خفته على شرفى ، وخافنى على مثله .

قال معاوية : فأى شىء كان له عندك؟

قال سعيد : أسواه حاضرا ، وأسره غائبا .

قال معاوية : يا أبا عثمان : تركتنا فى هذه الحروب .

قال سعيد : حملت الثقل ، وكفيت الحزم .

قال معاوية : فما أبطأ بك ؟

قال سعيد : غناك عنى أبطأنى عنك، وكنت قريبا ، لو دعوت لأجبناك ، ولو أمرت لأطعناك .

قال معاوية : ذلك ظننا بك .

ثم أقبل معاوية على أهل الشام فقال: ياأهل الشام ، هؤلاء قومى وهذا كلامهم

ثم قال لسعيد : أخبرنى عن مالك ، فقد نبئت أنك تتحرى فيه .

قال سعيد : يا أمير المؤمنين ، لنا مال يخرج لنا منه فضل ، فاذا كان ما خرج قليلا أنفقناه على قلته ، وان كان كثيرا فكذلك ، غير أنا لا ندخر منه شيئا عن معسر ، ولا طالب ولا مستحل ، ولا نستأثر منه بفلذة لحم ، ولا مزعة شحم .

قال معاوية : فكم يدوم لك هذا ؟

قال سعيد : من السنة نصفها .

قال معاوية : فما تصنع فى باقيها ؟

قال سعيد : نجد من يسلفنا ، ويسارع الى معاملتنا .

قال معاوية : ما أحد أحوج الى أن يصلح من شأنه منك .

قال سعيد : ان شأننا لصالح يا أمير المؤمنين ، ولو زدت فى مالى مثله ماكنت الا بمثل هذه الحال .

فأمر له معاوية بخمسين ألف درهم وقال : اشتر بها ضيعة تعينك على مروءتك .

فقال سعيد : بل أشترى بها حمدا وذكرا باقيا . أطعم بها الجائع ، وأزوج بها الايم ، وأفك بها العانى ، وأواسى بها الصديق ، وأصلح بها الجار .

فلم تأت عليه ثلاثة أشهر وعنده منها درهم .

فقال معاوية : ما فضيلة بعد الايمان بالله هى أرفع فى الذكرى ، ولا أنبه فى الشرف من الجود .. وحسبك أن الله سبحانه وتعالى جعل الجود أحد صفاته.

***

الأقصوصة الرابعة

دخل الزهرى على الوليد بن عبدالملك فقال له الوليد :

ـ ما حديث يحدثنا به أهل الشام ؟

قال : وما هو يا أمير المؤمنين ؟

قال : يحدثوننا أن الله اذا استرعى عبدا من رعيته كتب له الحسنات ولم يكتب له السيئات .

قال : باطل يا أمير المؤمنين ـ أنبى خليفة أكرم على الله أم خليفة غير نبى ؟

قال : بل نبى خليفة .

قال : فان الله تعالى يقول لنبيه داوود عليه السلام :

يا داوود انا جعلناك خليفة فى الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب .

فهذا وعيد يا أمير المؤمنين لنبى خليفة فما ظنك بخليفة غير نبى ؟

قال : ان الناس ليغوروننا عن ديننا.